

التجليات الدينية لعمارة بلاد المغرب الإسلامي

Religious manifestations of the architecture of the Islamic Maghreb

مغني بن عمرو¹، بعيندة بن صغير محضري²

جامعة غرداية ¹meguennibenouda@gmail.com

جامعة غرداية ²bensghryami@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2022/02/15 تاريخ القبول: 2022/05/25 تاريخ النشر: 2022/06/15

الملخص باللغة العربية:

يتمحور موضوع هذه الدراسة حول العمارة في بلاد المغرب الإسلامي، من حيث الأصل والتأثير من جهة، ومن حيث التوجيه الديني في البناء والفن والزخرفة والهندسة من جهة أخرى، وكان السبق لعمارة بلاد المغرب هو التوجيه الديني، فيتدخل الدين منذ الوهلة الأولى أي منذ بناء المدينة والضوابط في ذلك، ويتعداها إلى كيفية بناء البنايات وتوجيهها إلى وجهة معينة، ثم أماكن تواجد الأسواق، ثم طرق الزخرفة والهندسة، كما أن العمارة التي اختصت بالمجال الديني (العمارة الدينية) كانت أكثر تعميرا من باقي العمائر، لذا أوجدت عدت صروح كانت ناطقة بعظمة الفن الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: المغرب الإسلامي، العمارة، الفن، الزخرفة، الدين

Abstract: The subject of this study revolves around architecture in the Islamic Maghreb, in terms of origin and influence on the one hand, and in terms of religious guidance in construction, art, decoration and engineering on the other hand. In this, and beyond it to how to build buildings and direct them to a specific destination, then the locations of the markets, then the ways of decoration and engineering, and the architecture that specialized in the religious field (religious architecture) was more durable than the rest of the buildings, so it created several monuments that spoke of the greatness of Islamic art .

◆ المؤلف المرسل

التجليات الدينية لعمارة بلاد المغرب الإسلامي

Keywords: Islamic Maghreb, architecture, art, decoration, religion

مقدمة: تعتبر العمارة من المظاهر الهامة التي تبرز مكانة وتحضر الدولة، وإن وجودها بفنهما المعماري دليل على وجود موروث وتأثيرات معمارية تعمل على صقل نوعية العمارة للأفضل، وبالحدوث عن عمارة بلاد المغرب الإسلامي فلها أصول معمارية قديمة، كما أنها امتداد ولو بنوع من التشابه في الهندسة والزخرفة، وحتى البناء لبلاد المشرق الإسلامي والأندلس.

بالرجوع إلى سبب التشابه فهو وجود قاسم مشترك ألا وهو الدين الإسلامي، وتعاليمه الخاصة بمجال العمران والعمارة والفن، فلزمت ضوابطه الشرعية السيورة في الحياة المعمارية ونظمت طرق وأماكن البناء وكيفية الزخرفة والفن، فإلى أي مدى ساهمت التعاليم الدينية في إظهار العمارة الإسلامية لبلاد المغرب الإسلامي بشكلها الحضاري؟

1-تعريف العمارة:

يقول ابن خلدون "اعلم أن المدن قرار تتخذها الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه، فتؤثر الدعة والسكون وتتوجه لاتخاذ المنازل للقرار، ولما كان ذلك للقرار وللمأوى وجب أن يرى فيه دفع المضار بالحماية وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها"¹. العمارة كانت أهم مطلب للإنسان في حياته لذلك أوجد البيت أو المنزل أو الدار، والتي هي مسميات يمكن أن تختلف نوعا ما في مفهومها إلا أن لها نفس المدلول، كما ظهرت المدن ودعت الحاجة إلى تحصينها، وظهرت المساجد، وبحصول الحضارة والترف ظهرت الفنون التي أبهرت في مظاهرها فن العمارة الإسلامية

العمارة: لغة مأخوذة من الفعل عَمَّرَ والعمر بالفتح وبالضم يقال: طال عمره، والعمر اسم لمدة عمارة البدن بالحياة فهو دون البقاء.²

العمارة اصطلاحا: هي أكثر النشاطات صلة بتجسيد الواقع الحضاري لأمة كأنها تقوم بتحديد النمط الحياتي والسلوكي خلال تأثيراتها المباشرة على البيئة البشرية وعكسها للمفاهيم والرموز الهادية والمعنوية في أي فترة تاريخية³، كما يمكن أن تكون أسلوب

1- عبد الرحمان ابن خلدون، 2002، صفحة 33

2- محمد بن محمد الحسين، 2002، صفحة 23

3- محروق إسماعيل، 2018

لتوجيه الحركة داخل الفراغات، وهي فن علمي لإقامة الكتل في أبعادها الثلاثة بشرط توفير احتياجات الناس⁴، هي الحي العظيم تنفر بإقامتها ونجعتها، وجمعها عمائر، قال الجوهري: والعمارة القبيلة والعشيرة⁵. أما فن العمارة فتعرف بأنها الفضاء المحصور بين الجدران⁶.

يقدم لنا مفهومنا للعمارة فيصفه بأنه "التساكن والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشيرة واقتضاء الحاجة لها في طباعهم من التعاون على المعاش، ومن هذا العمران ما يكون بدويا وهو الذي يكون في الضواحي والجبال، وفي الحلل المنتجة في القفار وأطراف الرمال، ومنه ما يكون حضريا وهو الذي بالأمصار والقرى والمدن للاعتصام بها والتحصين بجدرانها"⁷.

2- أصل الفن المعماري في بلاد المغرب:

أسس الفينيقيون أقدم حاضرتين بالمغرب ونعني بهما مدينة أوتيكا قرب تونس ومدينة ليكسوس قرب العرائش إيدانا بانطلاق الفن المغربي القديم من المشرق⁸، أما الفن البربري فهو فن الشعب الذي لعب الرجل دورا بارزا في فنونه المعمارية بينما كانت السيادة في فنونه التطبيقية للمرأة المغربية التي تركت بصمتها في جميع الفنون الزخرفية⁹، كما أن هذا الفن عرف الزخارف الهندسية دون الحيوانية أو النباتية، فليس في فن البربر أثر للأشكال الحيوانية أو النباتية أصل الفن المعماري في بلاد المغرب، كما أن المغاربة اكتسبوا من الرومان سن القوانين وفن العمارة وتنظيم المدن¹⁰، وسبب هذا التأثير هو طول مدة الاحتلال الروماني لبلاد المغرب التي شيدوا فيها العمائر والمدن.

ويمكن القول أن الفن البربري تأثر منذ ألفي عام بمدنيتان مختلفتان ومزج عناصره المحلية بعناصر أخرى استمدتها من القرطاجيين والرومان والبنزطيين إلى أن انصهر أخيرا ذلك التراث في بوتقة الفن العربي الإسلامي محتفظا بشخصيته الخاصة وطابعه المتميز¹¹،

4- يحي وزيري، 2008، صفحة 21

5- محمد بن أحمد الأزدي الهروي، 2001، صفحة 234

6- يحي وزيري، 2008، صفحة 21

7- عبد الرحمان ابن خلدون، 2002

8- عثمان عثمان اسماعيل، 1992، صفحة 198

9- عثمان عثمان اسماعيل، 1992، صفحة 215

10- عثمان عثمان اسماعيل، 1992، صفحة 193

11- عثمان عثمان اسماعيل، 1992، صفحة 211

التجليات الدينية لعمارة بلاد المغرب الإسلامي

كما يمكن الإشارة إلى وجود تقارب بين هندسي بين المباني البربرية القديمة والطرز المغربي الذي ظهر في فجر الإسلام بالمغرب فكل منهما يرجع إلى أصل مشرقى واحد¹².

3- نشأة العمارة الإسلامية:

لما استقر الإسلام في عهد بني أمية وبلغت الدولة الإسلامية أقصى اتساع لها اقتبس المسلمون من الفنون التي سبقتهم، كالفن الساساني والبيزنطي والروماني والقوطي¹³، لكن تبقى آراء بعض المستشرقين تذكر أن العرب بعيدون عن فن العمارة وقال بعضهم بأنهم لم يكونوا إلا مقلدين ومستعيرين، وأنهم لم تكن لهم عمارة خاصة بهم تستحق الذكر، وأن كثير من أساليب العمارة انتقلت إليهم عن أمم غير إسلامية¹⁴، لكن المنتبع لبدایات الفن الإسلامي بأشكاله المختلفة سواء بالتشييد، أو اختيار المواقع، أو الزخرفة والهندسة، أو بجماليات الفن المعماري الإسلامي يرى أنها مستوحاة من توجيه الدين الإسلامي، وأن نشأتها كانت بنشأة الإسلام والمسلمين، ونجد الكثير من آراء المستشرقين تحاول التقليل من شأن الحضارة الإسلامية عامة ومحاولين نسب الحضارة التي وصل إليها المسلمون إلى أمم أخرى غير إسلامية، ويمكن الإشارة إلى أن الاحتكاك الحضاري بين العرب في الإسلام وغيرهم من الأمم قد بدأ منذ عصر الخلفاء الراشدين أنفسهم عن طريق الفتوحات الإسلامية مما فتح أعينهم على ألوان جديدة من العمائر والمنشآت¹⁵.

ولما قامت الخلافة العباسية في العراق 132هـ/656م وفي ظل هذه الدولة نضج الفن الإسلامي وأصبحت له سمة مميزة عن باقي الفنون، وعلى الجانب المعماري بالخصوص تغيرت الأساليب المعمارية والزخرفية، فكان التأثير الفارسي واضحاً حيث اتجه البناءون إلى استعمال الأجر بدل الحجارة والدعامات بدلاً من العمدة والعقود المدنية وظهور المداخل الملتوية وإقامة قبتين على المحراب، إن المعماري المسلم اقتبس من فنون الحضارات السابقة ما يتلاءم مع بيئته، وما يتماشى مع تعاليم دينه وسد احتياجاته، وصاغ تلك الأساليب المعمارية وطورها واستثمر في ذلك حتى تخلص من

12- عثمان عثمان اسماعيل، 1992، الصفحات 252-253

13- محروق إسماعيل، 2018، صفحة 21

14- كريشي أرنولد بيجر، 1984، صفحة 112

15- عثمان عثمان اسماعيل، 1992، صفحة 137

جميع التأثيرات الأجنبية، وصار طرازاً قائماً بذاته وأصبح من الصعب بما كان تميز تأثيرات الفنون الأخرى¹⁶.

وإذا كان الفن الإسلامي قد تأثر منذ نشأته بحضارة الدول التي فتحها، وبخاصة الفنين الساساني والبيزنطي، فإنه قد استبعد منها الجوانب الأسطورية كما تحاشى المحاكاة الشكلية، وعالج فنونها التجريدية مما يتفق مع تعاليم الدين الإسلامي¹⁷.

أما الطراز المغربي فيشهد أربعة قرون من التاريخ تبدأ من عصر القادة الفاتحين للمغرب ثم بعد يدخل عصر الولاة تابعاً للدولة الأموية حيث نشطت التأثيرات الأموية في فترة تكوين الفن الإسلامي العام¹⁸، كما لعبت الأندلس دوراً هاماً في تكوين الفن المغربي¹⁹.

4-أسباب العمارة: وجدت العمارة لحاجة الناس إليها، فقد تناول ابن الربيع العمارة وقسمها إلى قسمين: مزارع وأمصار، فأما الأمصار فقال: فيها وهي الأوطان الجامعة والمقصودة بها خمسة أمور أولها أن يستوطنها أهلها طلباً للدعة والسكون، ثانياً حفظ الأموال فيها من الاستهلاك، ثالثاً صيانة الحرم والحريم من الانتهاك، رابعاً التماس ما تدعو الحاجة إليه من متاع، خامساً ما يتعرض للكسب وطلب المادة²⁰.

ومن أهم أسباب العمارة مايلي:

حفظ العقل: فقد شرع بناء المساجد والمدارس والزوايا والكتاتيب.

حفظ المال: فقد شرع الله بناء الأسواق وتنظيمها، كما منع من تضيق الطرقات بالبناء فيها أو الجلوس بما يفوت مصالح الناس.

الحاجيات: ولحفظ الحاجيات أجازت الشريعة اتخاذ الحمامات والدخول إليها، نظمت كل ما يتعلق بأمر البناء.

16- محروق إسماعيل، 2018، صفحة 22

17- ثروت عكاشة، 1994، صفحة 38

18- عثمان عثمان إسماعيل، 1992، صفحة 247

19- السيد عبد العزيز سالم، 1988، صفحة 74

20- ابن ابي الربيع، 1990، صفحة 136

التجليات الدينية لعمارة بلاد المغرب الإسلامي

التحسينات: وهو كل ما يعود إلى العادة الحسنة والأخلاق الفاضلة، فكل أمر في العمارة الإسلامية يدخل في هذا الجانب هو من باب التحسين، ومن ذلك اتخاذ المنارات، والقباب، والزخرفة، والصحون، والمقصورات²¹.

كذلك عامل المحاكاة والتنافس يكون سبباً وجيهاً في العمارة، فمثلاً لما شرع إدريس الثاني في بناء عاصمة جديدة بعمرائها وتخطيطها، وأسوارها، ومرافقها، ومساجدها، ودور الإمارة، كان على وعيه بضرورة إقامة قيروان جديدة بالمغرب الأقصى يحتضن الإسلام²²، كما يمكن القول أن إنجازات السلاطين والخلفاء في ميدان العمارة والفنون كان إما تخليداً لأسمائهم وهذا ما ركز عليه المستشرقون، وإما لإظهار المكانة الحضارية التي وصلت إليها الدولة، فمثلاً برع الموحدون في تخليد ذكريات غزوات الإسلام العظيمة، فقد بنا يعقوب المنصور بعد انتصار المسلمين في وقعة الأرك منارة اشبيلية²³، ويعرف عن قصور الموحدون في الرباط أنها من المباني الرفيعة، والمنارة البديعة، وقباب الجلوس للسادات والقصور العليا ما جعلها من متنزهات الدنيا²⁴.

5-مميزات العمارة

1.5-مميزات البناء والعمارة في بلاد المغرب

شهدت الفنون العربية الإسلامية ازدهارها الرائع في القرن 4هـ/10 م بالمشرق والمغرب والأندلس وبلغت عنفوانها بين القرنين السابع 7هـ/13 و14م، وغطت مساحة واسعة، وعصور متعاقبة إلى أن دب إليها الهرم²⁵، وبرؤية أكثر شمولية فإن مجال علوم العمران والبنين يبدأ من مستوي تخطيط المدن وتنسيق حدائقها وفراغاتها وينتهي ببناء المباني وتصميمها الداخلي، وهناك علاقة مباشرة ما بين أسلوب تخطيط المباني وتخطيط المدن، وما يحمله العمران من دلالات وبين تكوين ثقافة أفراد المجتمع وتوجهاتهم الفكرية، كما أن للعمران والمباني دوراً في تشكيل وبناء الإنسان بطريقة غير مباشرة لا يشعر به²⁶، ومن السمات البارزة في مجال البناء للعمارة الإسلامية هو تركيزها على الداخل

21- بلحاج طرشاوي، 2009، الصفحات 96-98

22- عثمان عثمان اسماعيل، 1992، صفحة 264

23- محمد المنوني، 1989، صفحة 164

24- محمد المنوني، 1397هـ/1988م، صفحة 245

25- عثمان عثمان اسماعيل، 1992، صفحة 142

26- يحي وزيري، 2008، صفحة 22

أكثر من الخارج، المنزل الإسلامي المشيد حول صحن داخل ويطل على العالم الخارجي من خلال جدران عالية تتخللها نوافذ صغيرة ومجموعة من المشربيات تهيئ الانفتاح على الخارج²⁷، وكذلك من أبرز الأنماط المعمارية الإسلامية أنها تتمحور في بنائها وواجهاتها وهندستها حول وجهة، أو بتعبير أدق نحو القبلة (المسجد الحرام)²⁸.

أما عن بلاد المغرب الإسلامي فقد احتفظ الطراز المغربي بخصائصه، ولم تطرأ عليه تأثيرات خارجية إلا في القرن 5هـ/11م عندما ظهرت التأثيرات الأندلسية، فقد تأثر الطراز المغربي في الوهلة الأولى بالفن والعمارة المشرقية حيث انتقلت هذه التأثيرات إلى عمارة المغرب وأصبح أكثر ظهوراً بها، ومن ذلك على سبيل المثال أن نظام البائكات التي تمتد متعامدة على جدران القبلة قد ظهر أولاً في المسجد الأقصى بالقدس ثم انتقل إلى بلاد المغرب²⁹، كذلك كانت بعض المباني في بلاد المغرب تحمل مسحة التجديد فقد بنيت مدينة الرباط بالمغرب الأقصى على هيئة الإسكندرية من حيث الاتساع وحسن التقسيم وإتقان البنين وتحسينها وتحسينها³⁰، كما أن عمارة الأدارسة في جامع القرويين بعقودها الموازية للقبلة شأن المساجد بالمشرق مثل مسجد دمشق وبعلمك وبعضها في مصر، وقد استمرت عمارة الطراز المغربي تلتزم بنظام العقود الموازية إلى بداية عهد المرابطين الذين استخدموا العقود العمودية على القبلة، كذلك في مدينة نكور إيم الخليفة الوليد الأموي اتجهت الجهود إلى بناء رباط يحتوي على مسجد يرافقه يستوحي تصميمه من جامع الإسكندرية بأسلوب معماري بسيط في نطاق الفن الإسلامي الشرقي، ومن هذا الطراز مسجد أغمات عيلانة سنة 85هـ الذي يكون أول مسجد إسلامي بالمغرب الأقصى³¹.

كما ميز العمارة في بعض المناطق من بلاد المغرب البساطة، فقد كانت مظاهرها واضحة في العاصمة الرستمية تاهرت، حيث أن الحاكم الرستمي عبد الرحمان قام ببناء جامع المدينة بنفسه، وعندما زاره وفد من الكوفة وجدوا أن شخصاً يعجن له بينما يتولى هو بنفسه البناء³²، أما عن تأسيس فاس فكان ذلك إذاناً بتأسيس صرح الطراز

27- ثروت عكاشة، 1994، صفحة 61

28- يحي وزيري، 2008، صفحة 20

29- أحمد البهنسي، 1996، صفحة 19، 18

30- محمد المنوني، 1989، صفحة 163

31- عثمان عثمان اسماعيل، 1992، الصفحات 252-297

32- أحمد البهنسي، 1996، صفحة 82

التجليات الدينية لعمارة بلاد المغرب الإسلامي

المغربي الحقيقي في العمارة والفنون التطبيقية بربوع الدولة، ويستمر هذا الطراز في إمارة الأدراسة وبعد سقوطها وممالكهم شمالاً حتى تاريخ انقراض دولتهم الثانية بالشمال³³.

وقد اشتركت العمارة في بلاد المغرب والأندلس في كثير من صفات تشكيل الفراغ وتصميم الأعمدة والعقود وزخارف الحصن المفرغ³⁴، كما تتميز عمارة جامع القرويين في القرن 4هـ/10م بأنها تجمع بين خصائص العمارة الزناتية المتأثرة بالطراز الفاطمي، وبين الطراز الأندلسي الذي ظهر في بعض عناصر المساجد³⁵، كذلك في جامع الأندلسيين بالمغرب نجد التأثير الأندلسي واضحاً ففي المئذنة التي تعتبر الأثر الأندلسي الأموي في عمارة الجامع³⁶، ويرجع هذا التأثير على محاكات التطور الحضاري الذي كانت عليه الأندلس.

ولقد بلغت العمارة الإسلامية والفنون غيرها الذهبي مع ظهور الطراز المغربي الأندلسي التي تعود ملامحه إلى جامع قرطبة سنة 169هـ/785م الذي بناه عبد الرحمن الداخل³⁷، كما تظهر التأثيرات الأندلسية بجديدة بعد موقعة العقاب سنة 609هـ/1321م حيث ترتب عن ذلك هجرة الأندلسيين إلى بلاد المغرب، وتظهر هذه التأثيرات في الأبراج المستديرة مثل قلعة (أمرجو) بالمغرب الأقصى وأسوار مدينة مراكش³⁸.

وكذلك كانت للمساكن الإسلامي خصوصية واضحة بحيث يفصل جناح النوم، وأهل البيت عن جناح المعيشة والزوار، ويكون ذلك إما بالفصل أفقياً عن طريق وجود مدخل متوسط للوحدة السكنية³⁹.

وقد حمل الفن المعماري في ظل الإسلام تعبيراً معمارياً جديداً إذ ربط هذا الفن بين المسجد والكعبة في مكة المكرمة، وتزاوج التعبير المعماري الأول الذي أحسه ساكن

33- عثمان عثمان اسماعيل، 1992، صفحة 252

34- ثروت عكاشة، 1994، صفحة 22

35- أحمد البهنسي، 1996، صفحة 82

36- نجار ليلى، 1982

37- محروق إسماعيل، 2018، صفحة 22

38- أحمد البهنسي، 1996، صفحة 123

39- يحي وزيري، 2008، صفحة 121

البادية من صلته بالسماء من خلال صحن أعلاه مكشوف مع التعبير المعماري الجديد المستوحى من صلة العابد بالأرض⁴⁰.

2.5- مميزات فن الزخرفة في بلاد المغرب:

للزخرفة الإسلامية عدت مميزات، ويشير إليها العالم الفرنسي بروجوان bougeoin إلى أنه في الفن الإغريقي عناية بالنسب والأشكال التجسيمية وبدقائق الجسم الإنساني والحيواني، بينما عرف الفن الياباني دقة في تمثيل المملكة النباتية، ورسم الأوراق والفروع والزهور، أما الفن الإسلامي فقد ميزه الأشكال الهندسية المتعددة الأضلاع بالأشكال⁴¹، وذلك للأثر الذي كان عليه موقف الإسلام من النحت والتصوير فاتجه المسلمون إلى الزخارف النباتية والهندسية والكتابة⁴²، كما عمد الفنان المسلم إلى البعد عن تقليد الطبيعة في رسم الجذوع والأوراق والنباتات معلناً مبدأ التجريد والرمز في الفنون الإسلامية، وابتكر في مرحلة حاسمة لتطور فنونه أسلوباً زخرفياً جديداً هو أسلوب التوشيح أو التوريق كما هو معروف بالمغرب والأندلس⁴³.

لذا فقد تأثر العنصر النباتي في الزخارف الإسلامية تأثراً كبيراً بانصراف المسلمين عن استحياء الطبيعة وتقليدها تقليداً صادقاً أميناً، فكانوا يستخدمون الجذع والورقة لتكوين زخارف تمتاز بما فيها من تكرار وتقابل وتناظر وتبدو عليها مسحة هندسية جامدة تدل على سيادة مبدأ التجريد والرمز في الفنون الإسلامية⁴⁴.

وأما عن سبب الاعتماد عن الزخرفة النباتية فإن الفنان المسلم اكتشف بشكل واعي بأن هدف الفن ليس محاكاة الطبيعة أو تقليد الكائنات الحية، وإنما إيجاد عالم مستقل من الأشكال والألوان للتعبير عن ما وراء الواقع، وبالتالي فاتجاه إلى الزخرفة النباتية ناتج عن رغبة داخلية واعية وعن نظرة فكرية وروحية نابعة عن الإسلام، كما أن وحدة الفن الإسلامي أدت إلى ارتباط المنشآت الفنية بمعاني روحية تتعلق بتوجيهات الإسلام⁴⁵، وقد فرض هذا الفن نفسه على الأوروبيين وافتتنوا به، وأطلقوا عليه اسم

40- ثروت عكاشة، 1994، صفحة 22

41- زكي محمد حسين، 1990، صفحة 35

42- عثمان عثمان اسماعيل، 1992، صفحة 119

43- عثمان عثمان اسماعيل، 1992، صفحة 129

44- زكي محمد حسن، 2004، صفحة 35، 36

45- محروق إسماعيل، 2018، صفحة 27

التجليات الدينية لعمارة بلاد المغرب الإسلامي

⁴⁶Arabesque، كما سار الفن الإسلامي في تشابه إلى حد كبير في سائر البلاد الإسلامية على شيء طفيف من التباين اليسير الذي تحمله كل بيئة وتختص به وتمليه مواهب أهلها، ويرد البعض سر هذه الوحدة التي تجمع الفنون الإسلامية إلى توحد الخط العربي الذي يكتب به المصحف الشريف، وهو عامل هام لكنه ليس الوحيد⁴⁷.

كما يمكن الإشارة إلى ميل الفنانين المسلمين في بلاد المغرب والأندلس إلى تغطية المساحات وعدم تركها من دون زينة أو زخرفة فإن من أكثر ما يلفت النظر في العمائر والتحف الفنية الإسلامية ازدحام الزخرفة وكثرتها، واتصالها حتى تغطي المساحة كلها أو جزءاً منها، ولذلك كانت الفنون الإسلامية فنوناً زخرفية قبل كل شيء، وكانت فضلاً عن ذلك أعظم الفنون في الزخرفة، لذا فإن الميزة في الفنون الإسلامية هي تكرار الموضوعات الزخرفية على العمائر والتحف الإسلامية تكراراً يلفت النظر⁴⁸.

6-التوجيه الديني للعمارة في بلاد المغرب الإسلامي:

لقد كان ظهور العمارة الإسلامية وبروزها إذاناً بميلاد فن معماري وزخرفي جديد كان التوجيه فيه بالدرجة الأولى يرجع إلى الدين فيذكر الماوردي وابن الربيع في تصويرهم عن المدينة الإسلامية يرجع إلى المعطيات المأخوذة من الضوابط الشرعية، وأن بناء مسجد جامع يكون في وسطها ليقترب على الجميع، وهو أحد ثمانية شروط لإنشاء مدينة إسلامية⁴⁹، ومن أولى محطات العمارة والبناء في الجانب الديني هو الخضوع الروحي، فكانت التقوى هي أساس البنين والعمارة مصداقاً لقوله تعالى ﴿أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾⁵⁰، فقد استجاب الفن الإسلامي لاتجاه الدين فلم يستخدم التصوير لنشر التعاليم الدينية كالمسيحية أهمل فن اللوحات وعمل التماثيل، واقتصر على تزويد المؤلفات العلمية والأدبية، فأفرغ عبقرته في فنون الزخرفة الكتابية،

46- عثمان عثمان اسماعيل، 1992، صفحة 129

47- ثروت عكاشة، 1994، الصفحات 22-33

48- زكي محمد حسن، 2004، صفحة 44

49- يحي وزيري، 2008، صفحة 188

50- سورة التوبة الآية 109

والهندسة النباتية فبلغ فن الخط العربي جمالاً زخرفياً لم يبلغه فن آخر في تاريخ الإنسانية⁵¹.

ومن أجل حفظ الدين الإسلامي تم اختيار موقع المدين، وبناء المرافق العامة، واختيار موضع المسجد وإبراز دوره داخل المجتمع، وعند بناء المساكن والمرافق روعيت فيها القيم والمبادئ الإسلامية على مستوى البناء والوظيفة والمقاس⁵². كذلك كانت التوجيهات الدينية واضحة في طرق تعيين مراكز بنايات وفصلها عن الأسواق، وأن يكون عن أطراف المدينة فقال الرسول الكريم ﷺ: "هَذَا سُوقُكُمْ ، فَلَا يُضَيِّقُ ، وَلَا يُؤْخَذُ فِيهِ حُرَاجٌ" وذلك عندما جعل للمدينة المنورة سوقاً.

كما يتدخل الدين في توجيه المباني نحو وجهة معينة شكلت قدسية لدى كافة المسلمين في أصقاع الأرض، فتوجيه المباني لم يكن محض الصدفة، بل كان نحو القبلة، وإن فكرة جعل البيوت اتجاهها موجودة منذ عهد سيدنا موسى ﷺ من أجل تسهيل إقامة الصلاة بداخلها لأتباعه الذين آمنوا به ثم يأتي سيدنا رسول الله ﷺ ليؤكد هذا المفهوم⁵³، فعن أبي أيوب الأنصاري أن الرسول ﷺ قال: "لا تستقبلوا القبلة بغائط أو بول ولا تستدبروها ولكن شرقوا أو غربوا". أما عن عدم التوجه للقبلة يفقد المجتمع المسلم أهم العوامل التي تميز شخصيته حيث انه يشعر اتجاهها برباط روحي دائم بينه وبين مكة، وليس في المسجد فقط بل في بيته اثناء أداء الصلاة⁵⁴.

أما ما ميز تداخل الجانب الروحي والعمارة بفنها هو "الصحن" المتسعة والصحن هو الفراغ المكشوف المحدد بواسطة الجدران أو المباني، وهو الحلقة الرابطة المميزة لكل العماائر الدينية أو المدينة الإسلامية، وتظهر وظيفته في أن يكون المسلم على اتصال دائم بالسماء⁵⁵، ففي البداية عندما كان الجامع مسطحاً من الأرض مسوراً غير مسقوف لم يكن ما يحجب نظرة المصلين إلى السماء، حتى إذا تطلب الأمر تغطية مكان الصلاة في الجامع اتقاء حرارة الشمس، وتقلبات العوامل المناخية في البلاد المختلفة،

51- عثمان عثمان اسماعيل، 1992، صفحة 127

52- بلحاج طرشاوي، 2009، صفحة 94

53- يحي وزير، 2008، صفحة 79

54- يحي وزير، 2008، صفحة 82

55- محروق إسماعيل، 2018، صفحة 23، 24

التجليات الدينية لعمارة بلاد المغرب الإسلامي

فحرص المعماري المسلم على أن تكون نظرة المسلم إلى السماء غير محجوبة فشطرت المسجد شطرين أحدهما مسقوف للصلاة والآخر مكشوف وهو الصحن⁵⁶.

خاتمة: عند بلوغ الدولة الإسلامية أوج قوتها وافتحتها للإمبراطوريات مختلفة تأثرت بالفنون المعمارية لتلك الإمبراطوريات، وبطبيعة الحال انتقلت تلك التأثيرات إلى أصقاع البلاد الإسلامية وبما فيها بلاد المغرب الإسلامي، بيد أن بلاد المغرب كانت لها روااسب معمارية منذ العصر القديم أوحى للمعماريين المسلمين المزج بين التأثيرات المشرقية والمغربية وبما فيها بلاد الأندلس التي كان لها دور بازر في فن العمارة لبلاد المغرب.

كما أن بلاد المغرب اكتسبت مميزات معمارية هامة في مجال البناء والزخرفة؛ والتي يمكن الحكم عليها بتشابهها نوعاً ما في كامل البلاد الإسلامية خاصة في مجال الهندسة والزخرفة النباتية، ويرجع ذلك إلى الخط العربي الذي وحد من الفن الإسلامي.

أما عن الدليل الديني فقد كان بارزاً بوضوح منذ الوهلة الأولى، فكانت المدن تشيد بالضوابط الشرعية وكانت البناءات تقام وفق التوجيه الإسلامي وخير دليل على ذلك هو التوجه الكامل للبناءات للقبلة.

المراجع:

- أحمد البهنسي عمارة المغرب والأندلس في العصر الإسلامي، رسالة دكتوراه، كلية العلوم الانسانية، جامعة عين شمس، 1996
- السيد عبد العزيز سالم، العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها. الكويت: عالم الفكر. (د، ط)، 1988.
- بلحاج طرشاوي، العمران ومقاصد الشريعة، رسالة دكتوراه، كلية الأدب والعلوم الإنسانية، جامعة تلمسان، 2009.
- ثروت عكاشة، القيم الجمالية في فن العمارة الإسلامية. القاهرة: دار الشروق، ط1، 1994.
- زكي محمد حسن، في الفنون الإسلامية. القاهرة: دار الكتب العلمية، (د، ط)، 2004.
- عبد الرحمان ابن خلدون، مقدمة، تر، علي عبد الواحد، القاهرة: دار النهضة، 2019.
- عثمان عثمان اسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى. الرباط: الهلال العربي للنشر، 1992.

56- ثروت عكاشة، 1994، صفحة 26

مَعْنَى بِنِ عَمْرٍوَة - بِنْدَة بِنِ صَغِيرِ صَفْرِي

- كريشي أرنولد بيجر، تراث الإسلام في الفنون الفرعية والتصوير. دمشق: دار الكتاب العرب 1984.
- محروق إسماعيل. (2018) العمارة الإسلامية في كتب رحالة المغرب الإسلامي من القرن 7هـ إلى القرن 10هـ / م حتى 16م .، كلية العلوم الإنسانية، جامعة تلمسان.
- محمد المنوني، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين. الرباط: دار المغرب 1397هـ. 1988م.
- محمد المنوني، حضارة الموحدين. الدار البيضاء: دار تويقال للنشر، 1989م.
- محمد بن أحمد الأزدي الهروي تهذيب اللغة، بيروت: دار التراث العربي، 2001م.
- محمد بن محمد الحسين. (). تاريخ العروس في جواهر، بيروت: دار الهداية، 2002.